الباب الثالث

فن الحوار والسرد في قصص القرآن الكريم

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول
طبيعة المشهد والحوار في القصة القرآنية

السرد والحوار في القصة القرآنية:

من المعروف أن القصة القرآنية الفنية تعتمد على الحوار والسرد في بنائها والمحاورات القصصية أمر لا غنى عنه وبخاصة في الرواية، لأن طولها يستدعي - بل يوجب - تنوع أسلوبها بين الوصف السردي والحوار والمحاورة في المسرحية هي الركيزة الأساسية التي تقوم عليها. بل هي الركيزة في الأسلوبية الوحيدة، إذا استثنينا بعض الأوصاف التي يكتبها مؤلف المسرحية للمكان، أو للشخصيات لتكون عوناً للمخرج عند ظهور المسرحية ممثلة، وهو ما يعرف بالتوجيهات المسرحية، والمقصود بطبيعة الحوار هو بيان سماته الفنية، ومنها مناسبته للشخصية وللموقف القصصي، ومنها بيان دوره في تطوير الأحداث وتصعيدها، ومنها بيان قدرته على تقديم الشخصية وتصويرها تصويراً صحيحاً يتفق وصورتها الحقيقية، ولكل من هذه السمات أمثلته الموضحة.

والمحاورات القصصية في القرآن الكريم لها شأن عجيب، من حيث قدرتها على بيان مدى المقاومة بين أطراف الحوار، تلك المقاومة التي لابد من توافرها لكي ينشأ الموقف الذي يجسم صراعاً بين قوى مريدة، وأخرى مانعة قاهرة، والمغالبة بين هذه القوى هي التي تؤدي إلى تصعيد الحدث إلى ذروة تنتهي بتغلب إحدى القوتين على الأخرى... وعلى قدرة قوة الصراع بين أطراف القصة تكون المقاومة في المحاورة[1].

(1) بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، ص٧٥، ٧٦.

ولكي تتضح هذه القاعدة التي تحكم بناء المحاورات في القصص القرآني نقف مع بعض المحاورات لنتبين صدق ما تدعي أولها بين رب العزة سبحانه وبين الملائكة في خلق آدم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾.[البقرة].

ليس في هذه المحاورة صراع أو مقاومة بين طرفيها، ولكن غاية ما يقال عنها: إنها نوع من المراجعة من الملائكة لرب العزة سبحانه وتعالى؛ لأن الملائكة هم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾. [التحريم].

فهم لا يملكون القدرة الحافزة على المقاومة والصراع. وإنما دفعهم إلى هذه المراجعة ما سبق إلى علمهم بأن ذرية هذا الخلق الجديد سيكون منهم إفساد في الأرض وسفك للدماء، وعلمهم بصفة هذه الذرية يدعو إلى الاعتقاد بأن ثمة حذفاً في هذه المحاورة، وقد وقع هذا الحذف في الجزئية المتصلة بالطريقة التي علمت منها الملائكة بصفة ذرية آدم[1] بادروا بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ وعجبهم منصب على أنّ الله ـ سبحانه ـ يستخلف من هذه صفة مكان من يطيعه ولا يعصيه وهم الملائكة[2].

(١) انظر: تفسير الطبري .ج١ ص٢٠٩، ٢١٠.

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المجلد الأول ،ج١ ص١١٥، ١١٦.

إن طبيعة المحاورة هنا تعتمد على اختلاف طرفي الحوار، الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وهو صاحب المشيئة المطلقة، والمخلوقون الذين لا يعصون لله أمراً، وإذا جاءت المحاورة على هذه الصفة،إذا لم يتعدّ الطرف المقهور ـ وهم الملائكة ـ طور المراجعة إلى ما هو أشد منها، من مقاومة أو صراع، ولم يلبث هذا الطرف المقهور أن أعلن الاستسلام والخضوع حين بدت لهم مشيئة الله في خلق آدم وتفضيله على غيره من المخلوقات فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

وفي هذا القول تأكيد منهم لشخصياتهم وصفتهم الملتزمة طاعة الله دائماً، ومراجعتهم للخالق ـ سبحانه ـ لاتعني بحال خروجهم عن هذه الطاعة، بل تؤكدها،إذ سرعان ماردوا الأمر برمته إلى علم الله فور ظهور الدليل أمامهم على أفضلية هذا المخلوق الجديد.

ومن اللطائف في بناء هذه المحاورة، أنّ القارىء قد ينظر إلى قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ فلا يدري أهذا الجعل قد كان فعلا وقت بداية المحاورة أم سيكون فيما بعد؟ ثم يقرأ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ فيفاجأ بخطاب الله لآدم عليه السلام وهو كان فعلا،وإن آدم أصبح خلقًا مستوياً مؤهلاً للخطاب،مؤهلاً أيضاً لتلقي العلم،وفي هذا إيذان وإرهاص بقرب انتهاء المحاورة؛ لأن الحدث الذي هو موضوع المراجعة قد تم فعلاً، ولذا لم يكن من الملائكة مراجعة بعد ذلك، بل كان منهم الخضوع والإذعان لمشيئة الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ
مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾. [الأعراف].

إن شخصية «إبليس» مصورة في هذه المحاورة أوضح مايكون التصوير، وهو هنا ذو وجهين مختلفين أشد الاختلاف، وجه ينبيء بالذلة والصغار، ووجه يوحي بالتمرد والكبر والخروج على طاعة الله، وقد أوضحت المحاورة هذين الوجهين دون أدنى تدخل من السرد الوصفي.

ويمكن أن نلخص الوجه الأول والوجه الثاني «لإبليس اللعين» في الجدول التالي:

الوجه الأول	الوجه الثاني
١ ـ وقوفه أما ربه صاغراً حين سأله عن سبب امتناعه عن السجود.	١ ـ إبائه وامتناعه عن السجود لآدم، وعصيانه أمر ربه.
٢ ـ في صدور الأمر الإلهي بالهبوط، والأمر بالخروج وتوعده بالصِّغار.	٢ ـ ادعائه أنه خير من آدم لأنه خلق من نار، وآدم خلق من طين.
٣ ـ في وقوفه مستعطفاً سائلاً ربه النظرة.	٣ ـ إجابة الله ـ سبحانه ـ له طلب الانتظار.
٤ ـ في تكرار الأمر بالخروج مذءوماً مدحورا.	٤ ـ في مبالغته في توعد بني آدم، والانتقام منهم.

ومن العجيب حقا أن يتصف إبليس بهذه الصفات المتناقضة في آن واحد، فبينما يعلن خيريته على آدم، ويقدم الدليل على هذه الخيرية. وهو اختلاف مادتي الخلق (النار والطين). إذ هو يعود فيستعطف ربه سائلاً إياه أن ينظره إلى يوم البعث، فلما

obeikan.com

أجيب على طلبه، دون تحديد الموعد الذي طلبه،عاد إلى تمرده، ولكنه لاينسى قدرة ربه فيقسم بها ليسلكن كل سبيل إلى إغواء ذرية آدم،ولاينسى قدرة ربه أيضاً فيعلن أنه إذا استطاع أن يغوي الكثرة الكاثرة من هذه الذرية ويصدهم عن ذكر الله؛ فإن بعضهم لن يستجيب لغوايته ولذا قال ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف]. لأن الأمر مردود على الله سبحانه، ولذا صرح في آية أخرى:﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾. [ص].

إن إبليس خلق من خلق الله، ولو شاء الله ـ سبحانه ـ أن يقسره على الإيمان والسجود لآدم لقسره، أو لهداه إلى السجود كما هدى الملائكة، ولكن الله ـ سبحانه ـ أعطاه حرية الاختيار، وصان له هذه الحرية، ومن هنا يبدو الفرق بين هذه المحاورة والمحاورة السابقة بين رب العزة والملائكة بشأن خلق آدم ، فالمحاورة السابقة لم يكن فيها تجاذب لأطراف الحوار؛ لأن الملائكة سرعان ما أذعنوا لمشيئة الله ـ سبحانه ـ ولكن إبليس ـ وقد أعطى قدراً كبيراً من الحرية ـ راح يلج باب الحوار، فيما يشبه الجدل أحياناً ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]. وفيما يشبه التحدي لذرية بني آدم أحياناً أخرى ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف].

ونلاحظ، أن إبليس كان كثير الكلام بعد إجابة الله ـ سبحانه ـ طلبه في الانتظار، أما قبل ذلك ، فكان كلامه قليلا إلى حدٍ ما، وإن كان لايخلو من جرأة ظاهرة؛ وذلك لأن إجابة طلبه زادته جرأة، ولعل ذلك سبب التفضيل الظاهر في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾. [الأعراف].

إن النقاد يؤكدون أن الحوار يجب أن يكون مناسباً للشخصية وللموقف القصصي، وها هو ذا القرآن الكريم يضع القاعدة القصصية قبل أن يعرف النقاد حرفية الفن القصصي، وقبل أن يهتدوا على معايير جودة المحاورات بزمن طويل.

أما السمة الثانية وهي دور الحوار في القرآني في تطوير الأحداث وتصعيدها فيتضح من خلال هذه القصة: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾. [المائدة].

ولننظر في البناء اللغوي المحكم ـ بل المُعجز ـ لهذه القصة، لنرى كيف أن الأسلوب القرآني ضرب صفحاً عن كثير من الأمور التي لاتتعلق لنابها ولا غرض يعود علينا من ذكرها، فمن هما ابنا آدم هذان؟، وما السبب الذي دفعهما إلى أن يقربا قرباناً؟ هذه الأمور لا مكان لها في القصة القرآنية؛ لأنها لاتفيد شيئاً سوى إشباع الفضول البشري، والفضول البشري لاوزن له في منهج القصة القرآنية، وإنما مكانه في القصص البشري الفني!!!.

كل ماذكرته القصة أنهما أخوان قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، وبهذا صرنا في قلب الأحداث قبل أن تكتمل الآية الأولى من القصة!! وأعجب من هذا أننا نصير إلى ذروتها الدامية بعد أول جملة حوار ينطقها الأخ الذي لم يتقبل منه،«قال لأقتلنك» والملحوظ أنها الكلمة الوحيدة التي نطق بها هذا الأخ، ولكنه

قالها في إصرار عنيد، وتوكيد جازم، وكأنه يريد أن يسد أمام نفسه كل سبل العودة إلى المسالمة والموادعة التي يقتضيها واجب الأخوة، ورابطة الدم بين الأخوين!!.

وهذه الكلمة الوحيدة، تصور نفس هذا الأخ وما في داخلها من دوافع الشر، وإصراره عليه، وهي تصور - أيضاً - اختلاط الشر بهذا الإنسان وامتزاجه به، ثم هذا الإغراء الذي يقوده عليه، وكأنه يشرف به على خير يجتنبه أو نعيم يعيش فيه"[1]، وعلى عادة الأسلوب القرآني في ضبط الحركات النفسية تقول القصة عن هذا الأخ الظالم ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ .[المائدة].حتى نفهم، أنه ليس ثمة قوى خارجية أثرت فيه حتى يقرر قتل أخيه كالشيطان مثلاً، وإنما الأمر أولا وأخيراً شر ذاتي محض، وحقد دفين في نفسه، كما تدل هذه الكلمة على أن في نفس هذا الأخ صراعاً نفسياً داخلياً، وإلا ما كان في حاجة إلى عملية التطويع هذه"[2].

إن عنصر الشر هنا كان كلامه قليلاً وفعله مؤثراً غاية التأثير،وإذا كانت هذه الكلمة(لأقتلنك) تمثل إرادة الإنسان الباغي الظالم؛ فإن الكلام الكثير الذي جاء على لسان عنصر الخير، يمثل إرادة الإنسان الوادع المسالم، فهنا إرادتان متقابلتان، إحداهما مصرة على القتل، والثانية مصرة على ألا تدفع عن نفسها، ويعلن صاحبها حيثيات حكمه بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾. [المائدة]. وانتصار إرادة الظلم بقتل الأخ أخاه، إيذان بنهاية الأحداث؛ ولكن ليست إيذاناً بنهاية القصة، فما زال في القصة ومضة تضيء جانباً من جوانب النفس الإنسانية، تلك الومضة هي:قول القاتل بعد أن رأى الغراب يبحث في الأرض: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾. [المائدة].ولأن القرآن

(1) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه،ص٢١٩، ٢٢٠.

(2) بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم،ص٧٥، ٧٦.

Obeikan.com

هو الصدق المطلق، كان من المستحسن أن يرينا الومضة اللامعة في نفس هذا الأخ، فإن كل إنسان يرتكب جرماً أو معصية لا بد له أن يعود إلى نفسه، وأن يعود إلى رشده، فيندم على مافعل من جرم وما ارتكب من معصية تلك هي طبيعة الإنسان العاقل السوي،الذي قد تغلبه نفسه أو يغلبه شيطانه، وهكذا كان ابن آدم.

ويلاحظ أن الحوار هنا، قد خلا من عناصر غيبية غير بشرية سواء الملائكة أو الجن أو الشيطان، ولعل المقصود من القصة التأكيد على استقلال الإنسان، ومسئوليته عن اختياره فيما استخلف فيه، ويمكن أن يعد الغراب بديلاً عن هذه العناصر ليشد الإنسان إلى الأرض التي خلق من ترابها وقد فعل ومن الواضح في المحاورات السابقة أنه على قدر قوة الصراع بين أطراف القصة تكون المقاومة في الحوار، ويؤكد ذلك أمران:

أولهما:أن هناك محاورات قرآنية - وإن تكن غير قصصية - تنعدم فيها المقاومة تماماً؛لأن المحاورة بين قوى متكافئة. ولهذا لا تلبث القضية أن تحسم بطريقة الإقرار والتسليم، وفيها نجد الحوار قصير جداً وحاسماً كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾.[فصلت].

وثانيهما: أن هناك محاورات قرآنية تشتد فيها المقاومة وتعنف عنفاً ظاهراً،لأن الصراع فيها بين قوى متكافئة من حيث القوة ولاتعني بالقوة هنا القوة العادية فقط، ولكن القوة المعنوية لها حسابها في ميزان التحاور بين أطراف القصة، وربما كانت مقدمة على القوة المادية في حسم نتيجة المحاورة لصالح أحد طرفيها.

ومثل هذه المحاورات العنيفة نجدها تطول وتمتد حتى إن بعضها يشغل مساحة كبيرة من كتاب الله - عز وجل - ومن أوضح مايمثل هذا النوع من المحاورات، محاورات «موسى» - عليه السلام - مع فرعون في غير سورة من سور القرآن الكريم،

ومحاورات فرعون مع الرجل المؤمن من آله، ومحاورات«إبراهيم» ـ عليه السلام ـ مع أبيه وقومه.

لقد سبق أن نوهنا على أنّ للقرآن الكريم طرائق شتى تحكم توزيع الحوار والسرد في القصص الوارد فيه، ولذا نجد السرد في أول القصة،وفي آخرها،وبين المشاهد.وكما نجد الحوار في مراحل الحدث المتعددة،تجده في مراحل التعرف، والتصعيد، والعقدة والحل، وبخاصة في القصص المطول، وذكرت أيضاً إلى أنّ السمة البارزة أيضا في أسلوب القصص القرآني هي أن السرد لايأتي إلا حيث يجب أن يكون الأسلوب سرداً وصفياً، وكذلك الحوار لايأتي إلا حيث يفرض الموقف أن يكون الأسلوب حواراً، فكل منهما لايغني عن الآخر في موضعه.

وتتضح هذه السمة بجلاء إذا تأملنا إحدى قصص القرآن المطولة، وفيها نركز الحديث عن المواضع السردية، مع إشارات سريعة إلى بعض سمات الحوار.

يقول تعالى في بداية قصة موسى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ ﴾. [طه].هذه هى الآيات الأولى من القصة، وفيها تتضح البداية السردية الخالصة في الآية الأولى، التي تبدأ بهذا الاستفهام الذي يلفت الأنظار ويستحوذ على اهتمام القاريء والسامع، وينبه إلى أن أمر عجيباً سيحدث،أو سيظل من خلال هذه الآيات عن موسى، وقد تكررت هذه البداية السردية المعتمدة على أسلوب الاستفهام في مواضع أخرى من القصص القرآني، كقوله تعالى في بداية قصة «موسى» أيضاً: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ ﴾. [النازعات]. وفي هذه المواضع يعقب الاستفهام حدث غريب وأمر عجيب، وهذا الحدث الغريب هنا هو رؤية موسى النار، وغرابته نابعة من أن موسى في وقت وفي مكان لايتوقع فيهما رؤية

النار، ولذا قال:إني آنست ناراً، وقد رجا من وراء ذلك أن ينتفع بشيء منها، أو يجد عندها من يهديه الطريق.

ولا تكاد القصة تبدأ سرداً حتى تتحول إلى أسلوب الحوار،في يسر وسهولة ولطف وذلك في حديث موسى لأهله، ثم يقطع هذا الحوار في جملة سردية تصف بداية ما حدث لموسى عندما أتى النار، وهو مفاجئته بحديث رب العزة إليه،وحواره معه.

وقد وقف البلاغيون كثيراً أمام إطالة موسى ـ عليه السلام ـ في جواب ربه حين سأله عن العصا فقال موسى: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾. [طه]. وقالوا إن «موسى» أراد أن يطيل المقام مع رب العزة وآنس بلذة الحديث معه،وهذه حقيقة واضحة في كلام «موسى»،غير أن التعليل لذلك بالأنس بالحديث مع رب العزة وحده يقطع الآية من سياقها، ولنا أن نلحظ في حديث«موسى»الذي وقع في آية واحدة قد سبقه حديث أطول منه مع رب العزة جاء في ست آيات،قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾. [طه].فالله سبحانه وتعالى يوحي لموسى بالرغبة في مواصلة الحوار، بدليل هذا السؤال، ويريد أن يستل الخوف من نفسه في هذا الموقف العجيب الذي كان مفاجأة لموسى، ولذا جاء رد «موسى» مسهباً،ملائماً للموقف أيضاً.

ولنا أن نلحظ ـ أيضاً ـ أن رد «موسى» المطول عن العصا ليس هو الموضع الوحيد الذي وقع فيه إسهاب من «موسى» بل هنا موضع آخر أكثر إسهاباً وأشد

طولاً، فموسى بعد أن رأى من أمر العصا هذا العجب العجاب، وعرف أن ذلك بعض آيات الله إزداد رجائه في كرم ربه فجاء حديثه بعد ذلك أكثر طولاً من حديثه عن العصا: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾. [طه].

كما جاء حديث رب العزة إليه مسهباً ـ أيضاً ـ إذ أجابه إلى ما دعا به،ثم ذكّره بما امتن به عليه في صباه المبكر،يوم ولد في جو مشحون بالخوف والحذر من «فرعون» وآله، ثم ساقه الله تعالى ليربى في بيت عدوه «فرعون» ثم نجاته من الغم بعد أن قتل المصري، وفراره إلى مدين، حتى جاء إلى هذا الموقف العظيم الذي يخاطب فيه رب العزة ويخاطبه.

ولعل المراد من ذلك كله هو اطمئنان «موسى» إلى عناية الله التي ستصحبه في مهمته الشاقة التي كلف بها في أثناء المحاورة، وهي ذهابه إلى «فرعون» وهكذا يتبين أن طبيعة الموقف القصصي هي السر الأول في بناء هذا الحوار المتصف بالاسهاب من طرفيه كليهما[1].

الموضع السردي الثاني في هذه القصة يأتي في وسط حوار «موسى» مع رب العزة بشأن العصا: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾. [طه].

إن «موسى» ـ عليه السلام ـ أخبرنا بما يعرفه عن عصاه، وبين مهامها لديه من وجهة نظره هو، تلك المهام التي تتلخص في اتكائه عليها، وسوقه غنمه بها، بالإضافة إلى مآرب أخرى لم يبينها، ثم يتلقى أمر الله ـ سبحانه ـ بان يلقي هذه

(١) انظر: في ظلال القرآن،ج٤ ، ص٢٢٣٣،٢٢٣٤.

العصا، وقد لايدري أن وراء هذا الإلقاء أمراً عجيباً وحدثاً مبهراً يكشف عن مهمة أخرى من مهام العصا، ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ هذه الجملة السردية القصيرة جاءت بين جمل حوارية متعاقبة لتؤدي دوراً عظيماً لم يكن الحوار ينهض به، والمتلقي للقصة هو المعنى بهذه الجملة السردية،لأن «موسى» قد شاهد الحدث الجليل الذي تصفه، شاهد تحول العصا إلى حية عظيمة على الأرض في خفة ونشاط فخاف وولى مدبراً.

والمتلقى حين يقرأ هذا الوصف يحس مثل ما أحسه «موسى» ويفاجأ مثل ما فوجيء، فالأسلوب القرآني أراد أن ينقل الحدث، وينقل صورة الموقف، وما صاحبه من مشاعر التوجس والخوف، فصاغ ذلك كله في هذه الجملة السردية، وقد أفادت الفاء الأولى سرعة الإلقاء وأفادت الفاء الثانية سرعة تحول العصا إلى حية، وأنها ليست حية فحسب، وليست جامدة في مكانها، ولكنها حية تسعى، فيها خصائص الحية جميعها.

وفي بعض المواضع السردية من هذه القصة نجد خصيصة قرآنية لاتلمح لها أثراً في القصص البشري،وتتمثل هذه الخصيصة في أن هناك عناصر غيبية تتدخل في الحوار، فتقطع ما بين المتحاورين، تأخذ الموقف منهم،لتدلي برأيها فيما يتحاورون فيه،لتقيم لأحد الطرفين حجته أو تقوّي منطقه، أو تقوّي موقفه(١).

نقرأ قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى
وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ
أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا
نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا

(١) انظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه،ص١٢٦.

obeikan.com

﴿لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾. [طه].

فنرى في بدايتها حواراً بين «موسى» و«فرعون» وهو حوار يحمل كثيراً من الجدل والتحدي،ففرعون يسأل عن القرون الأولى ما بالها؟ ولا يكاد «موسى» يعطي الجواب الذي رآه حتى ينطق عنه الحق - سبحانه - بما يكمل الجواب على أتم صورة وأفضل بيان.

وهذا عمل لا يكون في غير القرآن، «ولا يقع في قصص غير قصص القرآن،حيث تقوم قدرة الله وتدبيره على كل شيء وحيث لا تقع حركة، أو تكون همسة في مواقف القصة إلا على هذا التقدير،ومن هنا كان تقليب الأمور فيها على هذا الوجه أمراً متوقعاً،غير منكر ولا مستغرب،على حين أن ذلك في العمل الأدبي - الذي يخلي فيه الكاتب مكانة المتحاورين - يعد تطفلاً وتمحلاً لا تدعو إليه ضرورة» ولا يحتمله الموقف،أو يتقبله الحال، وفي القصة موضع آخر يبرز هذه الخصيصة ويوضحها، وذلك قوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾. [طه].

والحوار هنا يسير في طريقه المقدر له، ومعه بعض الجمل السردية التي لا يخرج أسلوب القصة عن طبيعته. يفاجأ المتلقى بتدخل عنصر القدرة الإلهية القائمة خلف الأحداث والأشخاص، تتدخل لتصحح المسار وتلقي في روع «موسى» أنه الأقوى، وأنه الأعلى، وأن ماطاف بنفسه من خوف لا مكان له في هذا الموقف الحرج.

ومن المعجب أن كلام الله تعالى إلى «موسى» ورد مسبوقاً بالفعل (قلنا) الذي يدل على الحوار،وإسناد الفعل إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه، يدل على هذه القوة العلية،التي أدركت «موسى» في هذا الوقت العصيب، وقد سمع «موسى» كلام ربه بأذنه أو بقلبه فواجه الموقف ثابتاً بعد أن ردّ إليه هذا الحديث .

إن القصص البشري ليس فيه مكان لمثل هذا الأسلوب من القول، وإذا حدث فإنه يعد شيئاً غريباً،أو خطأ وقع فيه .

وآخر موقع سردي نقف معه في هذه القصة قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾. [طه].

إن الحوار في هذه القصة منطلق انطلاق السهم إلى الرمية، لا يقف في سبيل تقدمه شيء ولذا نلحظ على جمل السرد التي تعترض هذا الحوار أنها قصيرة وسريعة، لايكاد القاريء يلحظها رغم أهميتها في تصوير الموقف، وإيضاح جوانب المشهد، كما نلحظ ان الوصف الذي يأتي وسط الحوار يلبس أحياناً ثوب الحوار أيضاً، كما مر في الموضع السابق من قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه]...إلخ. وكما نرى في هذا الموضع،فإن الأسلوب القرآني ماكاد يقطع الحوار بين «موسى» والسحرة بقوله: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ ﴾ [طه]. حتى أخذ الأسلوب يحكي مقالة السحرة فيما بينهم، والتي جاءت في صورة حوار جانبي،إذ أخذ السحرة جانباً بعيداً عن «موسى» يديرون فيه حوارهم أو نجواهم،التي لا يريدون لموسى أن يسمعها، وعندما انتهى الحوار

الجانبي استغنى الأسلوب عن الوصف، وعاد إلى الحوار مرة أخرى، ومن بديع الحرفة القصصية هنا أن الأسلوب اكتفى - في وصف عودة السحرة إلى قلب المشهد مع «موسى» - بكلمة (قالوا) التي جاء بعدها النداء (ياموسى) لنعلم أنهم قد التفتوا إليه منفذين ماتفقوا عليه سراً، وبهذا جعل السياق كلامهم يصف الحركة الواقعة في أثناء المشهد دون حاجة إلى وصف ذلك بسرد يقطع الحوار، اللهم إلا كلمة (قالوا) وهي ضرورية في أسلوب القصة، كما أنها تعد أقل قدر من السرد في القص،لأنها تعدل - فقط - أسماء الأشخاص التي توضع بإيزاء أقوالهم التي تحرك الحدث في النص المسرحي"[1].

وهكذا نرى الدقة البالغة التي يبنى عليها أسلوب السرد في القصة القرآنية، ونرى - أيضا - الإعجاز في المزاوجة بين السرد والحوار على نحو يتضائل أمامه ألوان التأليف البشري، الذي لا يخلو من الثرثرة والهذر حتى عند أعظم الكتاب براعة في الكتابة القصصية.

◆◆◆

(١) لمزيد من شرح هذا الأسلوب القصصي: انظر: بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم،ص١٩١ ومابعدها.